واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه، وقال الشاعر:

أفـادتْكم النعـماءُ مني ثـلاثـةً يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبَا

والشكر أخص بالأفعال، والحمد أخص بالأقوال. وسبب الحمد أعم من سبب الشكر، ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد، فما يحمد الرب تعالى عليه أعم مما يشكر عليه، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، ويشكر على نعمه، وما يحمد به أخص مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح ويحمد بالقلب واللسان.

فصل: إذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته والصبر أصل ذلك، فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأموراً به فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل: فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر، وإنهما اسمان لمسمى واحد وهذا محال عقلاً ولغةً وعرفاً، وقد فرَّق الله سبحانه بينهما.

قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بيَّنا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكراً، وإذا تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه صبراً، أما الأول فظاهر، وأما الثاني إذا تجرد عن الشكر كان كفوراً، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

فإن قيل: بل ها هنا قسم آخر وهو أن لا يكون كفوراً ولا شكوراً، بل صابراً على مضض وكراهة شديدة فلم يأتِ بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل: كلامنا في الصبر المأمور به الذي هو طاعة لا في الصبر الذي هو تجلد كصبر البهائم، وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكر، ولكن اندرج شكره في صبره فكان الحكم للصبر، كما اندرج صبر الشكور في شكره فكان الحكم للشكر. فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب لا أنهما يزولان. فالمقدور الواحد يتعلَّق به الشكر والصبر سواء كان محبوباً أو مكروهاً، فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر وهو أخص به لما فيه من الكراهة ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة، فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عدَّه نعمة يشكر عليها، ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها، وعكسه الغنى.

على أن الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب وعدَّ ذلك كله ابتلاء، فقال: ﴿ونبلوَكُم بالشرِّ والخيرِ فِتنةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ [الفجر: ١٦] وقال: ﴿إنَّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوَهُم أيُّهم أحسنُ عملاً﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيام وكان عرشُه على الماء ليبلوَكُم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾ [هود: ٧] فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وقدر أجل الخلق وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضَّرَّاء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والمقدرة، وتأتي الأسباب أعظم الابتلائين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر، والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق قد يكون

أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب تعالى يبتلي بنعمه وينعم بابتلائه؛ غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغني عنهما طرفة عين، والسؤال عن أيهما أفضل، كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل، فالمأمور لا يؤدَّى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يُترك إلا بصبر وشكر، وأما المقدور الذي يُقدر على العبد من المصائب، فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى يأتي بالشكر المأمور به ويصبر عن الهوى الملهي عن طاعته فلا ينفك العبد عنهما أغنياً كان أو فقيراً، معافىً أو مبتلىً. وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل، وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهي التي حكاها أبو الفرج بن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل، وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها.

والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فرض استواؤهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضَّل بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إنَّ أكرَمكُم عند الله أتقاكُم﴾ [الحجرات: ١٣] وقد قال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا فضل لعجمي على عربي إلا لتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب». والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لا بد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

فإن قيل: فإذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغني أتم، فأيهما أفضل؟.

قيل: أتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله، ولا يصح التفضيل بغير

هذا البتة، فإن الغني قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره، وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغني في شكره، فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل، ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ولا بالعكس؛ لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما، بل الواجب أن يقال أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين، كما قال تعالى في الأثر الإلهي: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل مداومة ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» فأي الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل.

فإن قيل: فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام»، قيل: هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء في الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول، فقد يتأخر الغني والسلطان العادل في الدخول لحسابه، فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع كسبق الفقير القفل في المضائق وغيرها، ويتأخر صاحب الأحمال بعده، فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ للفقراء لما شكوا إليه زيادة عمل الأغنياء عليهم بالعتق والصدقة: «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم» فدلهم على التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة، فلما سمع الأغنياء ذلك عملوا به فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا يدل على ترجيح حال الغني الشاكر. قيل: هذا حجة للقول الذي نصرناه وهو أن أفضلهما أكثرهما نوافل، فإن استويا استويا، وها هنا قد ساوى الأغنياء الفقراء في أعمالهم المفروضة والنافلة، وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك فساووهم في صبرهم على الجهاد والأذى في الله والصبر على المقدور، وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال، فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الأغنياء لفضلوهم بها.

فإن قيل: إن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردها،

وقال: «بل أشبع يوماً وأجوع يوماً». وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز البر ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله[1]».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن عبادة بن القعقاع، عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً»، وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن محمد، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟ فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك فبعثت إليَّ بهذا، فقال: رديه. فلم أرده، وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال لي ذلك ثلاث مرات، فقال: يا عائشة رديه، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة، فرددته»، ولم يكن الله سبحانه ليختار لرسوله إلا الأفضل، هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها في مرضاة الله ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

قيل: احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين، والتحقيق أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين كليهما على أتم الوجوه، وكان سيد الأغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين، فحصل له الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغني سواه، فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك، فكان ﷺ أصبر الخلق في مواطن الصبر، وأشكر الخلق في مواطن الشكر، وربه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله في أعلى رتب الأغنياء الشاكرين، وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين، قال

---

(١) كان ﷺ يعطي أهله قوت سنتهم مما يخصه من خيبر، ولكن كانوا يكثرون من الصدقة فينفد القوت فيحتاج إلى ما ذكر.

تعالى: ﴿ووجدكَ عائلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٨] وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر، وأعال يعيل إذا صار ذا عيال، مثل لبن وأثمر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة، وعال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أنْ لا تَعُولوا﴾ [النساء: ٣] وقيل: المعنى ألاَّ تكثر عيالكم، والقول هو الأول لوجوه:

(أحدها) أنه لا يعرف في اللغة عال يعول إذا كثر عياله، وإنما المعروف في ذلك عال يعيل، وأما عال يعول فهو بمعنى الجور ليس إلا، هذا الذي ذكره أهل اللغة قاطبة.

(الثاني) أنه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذي نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الواحدة والتسري بما شاؤوا من ملك أيمانهم، ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال.

يوضحه الوجه (الثالث) أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط في نكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء لئلا يقعوا في ظلم أزواجهم اليتامى وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع، ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل في القسمة إلى الواحدة أو النوع الذي لا قسمة عليهم في الاستمتاع بهن ـ وهن الإماء ـ فانتظمت الآية ببيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف العدل فما لكثرة العيال مدخل ها هنا البتة.

يوضحه الوجه (الرابع): أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاؤوا من كثرة الإماء بلا عدد، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ولا فرق، فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش.

يوضحه الوجه (الخامس): أن كثرة العيال ليس أمراً محذوراً مكروهاً للرب تعالى كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساء، وقد قال النبي ﷺ:

«تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم» فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنياً شاكراً بعد أن كان فقيراً صابراً، فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضاً لحالها.

فإن قيل: فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الشاكرين، وقد قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عمارة، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: بينما عائشة في بيتها سمعت صوتاً في المدينة فقالت: ما هذا؟ فقالوا: عير لعبد الرحمن قدمت من الشام تحمل من كل شيء، قال: وقد كانت سبعمائة بعير، فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً»، فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: إن استطعت لأدخلنها قائماً، فجعلها بأحمالها وأقتابها كلها في سبيل الله.

قيل: قد قال الإمام أحمد: هذا الحديث كذب منكر. قالوا وعمارة يروي أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم الرازي: عمارة بن زاذان لا يحتج به.

قال أبو الفرج وقد روى الجراح بن منهال بإسناده، عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عوف إنك من الأغنياء، وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفاً، فأقرض ربك يطلق قدميك»، قال أبو عبد الرحمن النسائي: هذا حديث موضوع، والجراح متروك الحديث، وقال يحيى: ليس حديث الجراح بشيء، وقال ابن المديني: لا يكتب حديثه. وقال ابن حيان: كان يكذب، وقال الدارقطني: متروك.

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذي رواه البيهقي من حديث أحمد بن علي بن إسماعيل بن محمد: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، أخبرني خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه، عن عطاء بن أبي رباح، عن

إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا ابن عوف إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً، فأقرض الله يطلق قدميك. قال: وما الذي أقرض يا رسول الله؟ قال: تتبرأ مما أمسيت فيه، قال: أمن كله أجمع يا رسول الله؟ قال: نعم، فخرج وهو يهتم بذلك، فأتاه جبريل فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المساكين، وليبدأ بمن يعول، وليعط السائل، فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه».

قيل: هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ فإن أحد رواته خالد بن يزيد بن أبي مالك، قال الإمام أحمد: ليش بشيءٍ، وقال ابن معين: واهٍ. وقال النسائي: غير ثقة، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: لم يرضَ أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة.

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذي قاله الإمام أحمد: حدثنا الهذيل بن ميمون عن مطرح بن يزيد عن عبيدالله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي، قلت: ما هذا؟ قال: بلال، فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري المسلمين، ولم أر فيها أحداً أقل من الأغنياء والنساء! قيل لي: أما الأغنياء فهم في الباب يحاسبون ويمحصون، وأما النساء فألهاهن الأحمران: الذهب والحرير، ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتي في كفة فرُجحت بها، ثم أتي بأبي بكر فوضع في كفة، وجيء بجميع أمتي فوُضعوا في كفة فرجح أبو بكر، ثم أتي بعمر فوضع في كفة ووضع أمتي في كفة، فرجح عمر، وعرضت عليَّ أمتي رجلاً فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن بن عوف، ثم جاء بعد الإياس فقلت: عبد الرحمن، فقال: بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت إني لا أصل إليك إلا بعد المشيبات، قلت: وما ذاك؟ قال: من كثرة مالي أحاسب فأمحص».

قيل: هذا حديث لا يحتج بإسناده، وقد أدخله أبو الفرج هو والذي قبله في كتاب الموضوعات، وقال: أما عبيد بن زحر فقال يحيى: ليس بشيء وعلي بن يزيد متروك، وقال ابن حيان: عبيدالله يروي الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيدالله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم.

قال أبو الفرج: وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين، ويرون أنَّ المال مانعٌ من السبق إلى الخير، ويقولون إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفاً لأجل ماله، كفى ذلك في ذم المال. والحديث لا يصح، وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق؛ لأن جمع المال مباح وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع الحق الواجب فيه، وعبد الرحمن منزه عن الحالين؛ وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب؛ وخلف الزبير وغيره؛ ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل، وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث يحث على الفقر ويذم الغنى، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون الأصول ا هـ.

قلت: وقد بالغ في رد الحديث وتجاوز الحد في إدخاله في الأحاديث الموضوعة المختلفة على رسول الله ﷺ، وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم عن السبق إليها، ودخول الجنة حبواً ورأى ذلك مناقضاً لسبقه ومنزلته التي أعدها الله له في الجنة، وهذا وهم منه رحمه الله.

وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن في هذين الخبرين أفيجد سبيلاً إلى القدح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام». قال الترمذي حديث حسن صحيح، وفي حديث ابن عمر الذي رواه مسلم في

صحيحه عن النبي ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً».

وفي مسند الإمام أحمد عنه عن النبي ﷺ: «هل يدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء».

وفي جامع الترمذي من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً». فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم وهم في السبق متفاوتون، فمنهم من يسبق خمسمائة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عاماً، ولا يقدح ذلك في منزلة المتأخرين في الدخول فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم إلى الدخول وإن تأخروا بعدهم للحساب فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئاً من أمور المسلمين إلى الجنة، فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير، بل يكون أقرب الناس من الله منزلة، كما في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر».

فالإمام العادل والغني قد يتأخر دخول كل منهم للحساب، ويكون بعد الدخول أرفع منزلة من الفقير السابق، ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه، ثم يلحق برسوله ﷺ وأصحابه غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهوداً له بالجنة، وأما حديث دخوله الجنة زحفاً فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد رحمه الله: إنه كذب منكر، وكما قال النسائي إنه موضوع، ومقامات عبد

الرحمن وجهاده ونفقاته العظيمة وصدقاته تقتضي دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفاً.

فصل: والله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقرهم فخلق الغنى والفقر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملاً، وجعلهما سبباً للطاعة والمعصية والثواب والعقاب قال تعالى: ﴿ونبلوكُم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجعون﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام، وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون، وقال الكلبي: بالشر، بالفقر، والبلاء، والخير بالمال، والولد، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيَّتا الابتلاء والامتحان، وقال تعالى: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقَه فيقولُ ربِّي أهَانَنِ، كلاَّ﴾ [الفجر: ١٦] فأخبر سبحانه أنه يبتلي عبده بإكرامه له وبتنعيمه له، وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان، ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وإن تضييقه عليه إهانة منه له. فقال: كلا، أي ليس الأمر كما يقول الإنسان: بل قد أبتلي بنعمتي وأنعم ببلائي.

وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهراً للمتأمل، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿إنَّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً﴾ [الكهف: ٧] فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً.

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وما بينهما وأجل العالم وأجل أهله وأسباب معائشهم التي جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى فهو الأحسن عملاً.

وهذا هو الحق الذي خلق به وله السموات والأرض وما بينهما وغايته الثواب والعقاب وفواته وتعطيله هو العبث الذي نزه نفسه وأخبر أنه يتعالى عنه، وأن ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ينفي هذا الظن الباطل والحساب الكاذب كما قال تعالى: ﴿أفحسبتُم أنما خلقنَاكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون فتعالَى اللهُ الملكُ الحقُّ لا إله إلا هو ربُّ العرشِ الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٥] فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السِّنَة والنوم واللغوب والحاجة واكتراثه بحفظ السموات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم، فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه، كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره ﴿أكفرتَ بالذي خلقكَ من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوَّاكَ رجلاً﴾ [الكهف: ٣٧] فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه، وقال تعالى: ﴿وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولُهم أإذا كُنَّا تراباً أإنا لفي خلقٍ جديدٍ، أولئكَ الذين كفروا بربِّهم﴾ [الرعد: ٥] وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلهيته، كما أن تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك أيضاً، فمن كذب رسله وجحد

المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ونفى أن يكون رب العالمين.

والمقصود أنه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به، كما في المسند عنه ﷺ قال: يقول الله تعالى: «إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»، فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة وإقامة حق عباده بالزكاة لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام، فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فإن الغرض والحكمة التي أنزل لها كان التراب أولى به، فرجع هو والجوف الذي امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره، وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك، فعطّل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له وملأه بمحبة المال الفاني الذاهب الذي هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس وجمعه والاستكثار منه، ومع ذلك فلم يمتلئ بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذي خلق منه فرجع إلى مادته الترابية التي خلق منها هو وماله، ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذي بهما كماله وفلاحه وسعادته في معاشه ومعاده، فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولا بد، وكذلك العلم والملك والقدرة، كل ذلك إن لم ينفعه ضره، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها في الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها.

فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسراً لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له، فهو

بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها.

فالأقسام أربعة لا خامس لها: أحدها: معطل الأسباب معرض عنها. الثاني: مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها. الثالث: متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه في معاشه ومعاده، فهؤلاء الثلاثة في الخسران. الرابع: متوصل بها إلى ما ينفعه في معاشه ومعاده وهو الرابح. قال تعالى: ﴿من كانَ يُريد الحياةَ الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُون، أولئكَ الذين ليس لهم في الآخرة إلا النَّار وحَبِطَ ما صَنعُوا فيها وباطلٌ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾ [هود: ١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها أن من كانت له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد، ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب، قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونبته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة، قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أولئكَ الذين ليس لهم في الآخرة إلا النَّارُ وحبطَ ما صَنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يَعملون﴾ قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة. قال مجاهد: هم أهل الرياء. وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا، واختار الفراء هذا القول وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس، وهذا القول أرجح. ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله

الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمناً، فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته.

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارىء الذي قرأ القرآن ليقال فلان قاريء، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال هو جريء.

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن إدريس، قال: أخبرني عبد الحميد بن صالح حدثنا قطن بن الحباب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا، وفرقة يعبدونه رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك؛ الدنيا، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار، ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك؛ رياء وسمعة، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار، ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالَكَ؛ وجْهَك ودارَك، فيقول: صدقتم. اذهبوا بهم إلى الجنة»، هذا حديث غني عن الإسناد، فالقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على

صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها﴾ وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً! قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار؟ وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة فلا يوافي ربه بالإيمان. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وحَبِطَ ما صَنعوا فِيها وباطلٌ ما كانُوا يعمَلون﴾ [هود: ١٦] وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري وغيره.

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط

عمله الذي به النجاة المطلقة. والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله الموفق. وذلك قوله: ﴿مَنْ كان يُريد حَرْثَ الآخرة نزدْ له في حرثِهِ ومَنْ كانَ يريدُ حَرْثَ الدنيا نؤتِهِ منها وما له في الآخرة مِن نَصيب﴾ [الشورى: ٢٠] ومنه قوله: ﴿مَنْ كانَ يُريد العاجلةَ عَجَّلْنَا له فيها ما نشاءُ لمن نُريد ثم جعلنا له جهنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً، ومن أرادَ الآخرةَ وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ فأولئكَ كان سعيُهم مَشكوراً﴾ [الإسرء: ١٨].

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له.

بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فبأيهما يلحق؟ قيل: من ها هنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علَّق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا فإذا تجردت الإرادتان تجرَّد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿ منكم من يُريد الدنيا ومنكم من يُريد الآخرة ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما شعرت أنَّ أحدَ أصحاب رسول الله ﷺ يُريد الدنيا، حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية،

والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وها هنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة؛ كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة. والله المستعان.

فصل: والمقصود أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحاناً للشكر والصبر، والصدق والكذب والإخلاص والشرك، قال تعالى: ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ آلم. أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت: ٢] وقال تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة واللَّهُ عنده أجرٌ عظيم ﴾ [التغابن: ١٥]، فجعل الدنيا عَرَضاً عاجلاً ومتاعَ غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحفَّ الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى: ﴿ زُين للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حُسْنُ المآب ﴾ [آل عمران: ١٤]. فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا

من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة، وهو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التي هي عزُّ أصحابها وفخرهم وحصونهم، وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم. والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم، وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوَّق عباده إلى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال: ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورضوانٌ من الله والله بصيرٌ بالعباد ﴾ [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال: ﴿ الذين يقولون ربَّنا إننا آمنا فاغفرْ لنا ذنوبَنا وقِنا عذابَ النار، الصابرينَ والصادقينَ والقانتينَ والمُنفقينَ والمستغفرينَ بالأسحار ﴾ [آل عمران: ١٦]، فأخبر سبحانه أن ما أعدَّ لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به وأكبر منه، وهو رضوانه عليهم، قال تعالى: ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غَيْثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُه ثم يهيجُ فتراه مصفَّراً ثم يكون حُطاماً ﴾ [الحديد: ٢٠]. فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر، وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس، مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعاً في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون

والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى.

قال الإمام: حدّثنا وكيع، وحدّثنا المسعودي، عن عمرو بن مرّة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قَالَ[1] في ظل شجرة، في يوم صائف، ثم راح وتركها».

وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». قال الترمذي: حديث صحيح. وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع، وأشار بالسبابة».

وفي الترمذي من حديثه قال: «كنتُ مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها؟ قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: فالدنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها». وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلماً». والحديثان حسنان، قال الإمام أحمد: حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبدالله بن دينار النهراني قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: بحق أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد الله ليسوا بالمنعمين، بحق أقول لكم إن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله.

---

(١) من قال يقيل قيلولة، وهي النوم في الظهيرة.

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحق؛ قال أخبرني سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريين! أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً؟ قالوا: يا روح الله! ومن يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً. وفي كتاب الزهد لأحمد أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: بحق أقول لكم إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونوماً على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس.

وفي المسند، عنه ﷺ: «إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وإن قزحه وملحه[1] فلينظر إلى ماذا يصير».

فصل: ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضاً بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئاً للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد، والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك، ويحمي أنفة له، يقال: نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك، والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

فصل: ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد فيحب كل واحد أن يكاثر بني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره

---

(١) قال ابن الأثير: قزحه وملحه: أي توابله، من القزح: وهو التابل الذي يطرح في القدر كالكمون والكزبرة، أي أن الطعام وإن تكلف الإنسان التنويق في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر، فكذلك الدنيا والحرص على عمارتها راجعة إلى خراب وإدبار.

مالاً وولداً، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿ألهاكُم التكاثرُ حتى زُرتمُ المقابرَ، كلاَّ سوفَ تعلمونَ، ثم كَلاَّ سوفَ تَعلمون﴾ [التكاثر: ١] والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثراً وتفاخراً، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

فصل: ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح إن شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله يعجب الزراع، وإنما خص الكفار به لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجاباً بزينتها وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه، كما قال علي بن أبي طالب: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نجح لمن سالم، فيها مساجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذت بنيها، ونعت نفسها وأهلها، فتمثلت ببلائها، وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفاً وتحذيراً وترغيباً، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكّرتهم فذكروا ووعظتهم فاتّعظوا؛ فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك بل متى غرتك! أبمنازل آبائك في الثرى، أم بمضاجع أمهاتك في البلى، كم رأيت

موروثاً؟ كم عللت بكفيك عليلاً، كم مرضت مريضاً بيديك تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك؟ مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر فقال: يا هل الغربة! ويا أهل التربة! أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت فهذا خبر ما عندنا فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى.

فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحاً وفضلاً لأولياء الله فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته، والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذي ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده، ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة، وقالوا هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم، قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه. والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفين، ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل، والإيمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة، فهذا أفضل ما في هذه الدار، وهذا أفضل ما في الدار الأخرى. ولا يصح أن يقال: فأي الأمرين أفضل؟ فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

فصل: ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبيَّن غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالإنكاد والتنغيص، ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وقال تعالى: ﴿واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلطَ به نباتُ الأرض فأصبحَ هشيماً تذروه الرياحُ وكانَ اللّهُ على كلِّ شيءٍ مُقتدراً﴾ [الكهف: ٤٥].

ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه، وقال تعالى: ﴿إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلطَ به نباتُ الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرضُ زخرفَها وازيَّنتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حَصيداً كأنْ لم تغنَ بالأمس، كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرون﴾ [يونس: ٢٤].

ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعمَّ عباده بالدعوة إليها عدلاً، وخصَّ من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

وأخبر سبحانه أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم، وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة، لا من قلَّ ماله وولده في الدنيا، ونهى نبيه ﷺ أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختباراً، وأخبر أن رزقه الذي أعده له في الآخرة خير وأبقى من هذا الذي مُتِّعوا به.

وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا في دنياهم، وجعل ما آتاه مانعاً له من مد

عينيه إلى ذلك. فهذا العطاء في الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا، فلا تمدن عينيك.

فصل: وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده، يمتحن بها صبره وشكره، علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما، ولا بد لكل مؤمن منهما، وكل منهما في موضعه أفضل، فالصبر في مواطن الصبر أفضل، والشكر في مواضع الشكر أفضل، هذا إن صحَّ مفارقة كل واحد منهما للآخر، وأما إذا كان الصبر جزءاً مسمى الشكر، والشكر جزء مسمى الصبر، وكل منهما حقيقة مركبة من الأمرين معاً كما تقدم بيانه، فالتفضيل بينهما لا يصح إلا إذا جرد أحدهما عن الآخر، وذلك فرض ذهني يقدره الذهن ولا يوجد في الخارج، ولكن يصح على وجه، وهو أن العبد قد يغلب صبره على شكره الذي هو قدر زائد على مجرد الصبر من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فلا يبقى فيه اتساع لغير صبر النفس على ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل، فتنصرف قواه كلها إلى كف النفس وحبسها لله، وقد يغلب شكره بالأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه لنفسه وحبسها لله، فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحبس نفسه.

واعتبر هذا بشخصين: أحدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن الشهوات، قليل التشكي للمصيبات وذلك جلّ عمله، وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير: القاصر والمتعدي، سَمْحُ النفس ببذل المعروف، وآخر ضعيف النفس عن قوة الصبر، فللنفس قوتان: قوة الصبر والكف وإمساك النفس، وقوة البذل وفعل الخير والإقدام على فعل ما تكمل به، وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها، والناس في ذلك أربع طبقات، فأعلاهم من اجتمعت له القوتان، وسفلاهم من عدم القوتين، ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله، ومنهم من هو بالعكس في ذلك. فإذا فضل الشكر على الصبر؛ فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام، وإما أن

يكون باعتبار تجريد كل من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره، وتمام إيضاح هذا بمسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، فلنذكر لها باباً يخصها ويكشف عن الصواب فيها.

الباب الثاني والعشرون

في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر، أيهما أفضل؟ وما هو الصواب في ذلك؟

هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الأغنياء والفقراء، واحتجت كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار، ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين، فإن كلاً منهما أدلت بحجج لا تدفع، والحق لا يعارض بعضه بعضاً، بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان، وقد أكثر الناس في المسألة من الجانبين وصنفوا فيها من الطرفين، وتكلم الفقهاء والفقراء والأغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير؛ لشمول معناها وحقيقتها للناس كلهم، وحكوا عن الإمام أحمد فيها روايتان ذكرهما أبو الحسين في كتاب التمام فقال: مسألة الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر في أصح الروايتين، وفيه رواية ثانية الغني الشاكر أفضل، وبها قال جماعة منهم ابن قتيبة، ووجه الأولى ـ واختارها أبو إسحاق بن شاقلا والوالد السعيد ـ قوله تعالى: ﴿أُولئكَ يُجزون الغُرْفَةَ بما صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

قال محمد بن علي بن الحسين: الغرفة: الجنة. بما صبروا: قال على الفقر في الدنيا، وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة. قالت عائشة: ولم يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً، يا عائشة! لا تردي المسكين ولو بشق تمرة. يا عائشة أحبي المساكين وقرّبيهم فإن الله يقرّبك يوم القيامة».

قلت: لا حجة له في واحدة من الحجتين، أما الآية فالصبر فيها

يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن معصيته، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دلَّ على جزاء الصابرين دلَّ على جزاء الشاكرين أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾[آل عمران: ١٤٥] ﴿وسيجزي اللّهُ الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤] بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا، وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين: أحدهما أنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح، بل قال فيه البخاري: منكر الحديث، ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته.

الجواب الثاني: إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده ليست مسكنة فقر المال، بل مسكنة القلب، وهي انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر، فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز، وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله.

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا الجريري عن أبي السليل قال: كان داود النبي ﷺ يدخل فينظر أغمص حلقة من بني إسرائيل فيجلس إليهم ثم يقول: مسكين بين ظهراني مساكين، هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة.

قال أبو الحسين: وروى أبو برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن فقراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفاً حتى يتمنى أغنياء المسلمين يوم القيامة أنهم كانوا فقراء في الدنيا».

قلت هذا الحديث ثابت عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله، وروي عن أبي سعيد وأنس بن مالك، ولا يدل ذلك على علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء، بل إنما يدل على السبق لعدم ما يحاسبون عليه، ولا ريب أن وليَّ الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب، وكذلك الغني الشاكر، ولا يلزم من تأخر دخولهما نزول درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم، وإنما تمنّى الأغنياء أنهم كانوا في الدنيا فقراء، فإن صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم كما يتمنى القاضي العادل في بعض المواطن يوم القيامة إن لم يقض بين اثنين في تمرة؛ لما يرى من شدة الأمر، فمنزلة الفقر والخمول، ومنزلة السلامة، ومنزلة الغنى والولاية، ومنزلة الغنيمة أو العطب. قال أبو الحسن: وروى ابن عمر أن النبي ﷺ قام في أصحابه فقال: «أي الناس خير؟ فقال بعضهم: غني يعطي جلَّ نفسه وماله، فقال ﷺ: نعم الرجل هذا وليس به، ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطي على جهد».

قلت: لم يذكر لهذا الحديث إسناد فينظر فيه، وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به، ولو صحَّ لم يكن فيه دليل لأنه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهد فمعه فقر الصابرين وغنى الشاكرين، فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه، ولا ريب أن هذا أفضل الأقسام الثلاثة ودرهمه الواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره، كما قال النبي ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم» قالوا: يا رسول الله! كيف سبق درهم مائة ألف درهم؟ قال رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به، وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها». رواه النسائي من حديث صفوان بن عيسى، حدثنا ابن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وذكر البيهقي من حديث الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن

علي رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة نفر إلى النبي ﷺ فقال أحدهم كانت لي مائة أوقية فتصدقت منها بعشر أواق؛ وقال الآخر: كانت لي مائة دينار فتصدقت منها بعشر دنانير، وقال الآخر: كان لي عشرة دنانير فتصدقت منها بدينار، فقال: كلكم في الأجر سواء؛ كلكم قد تصدق بعشر ماله.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي حدثنا ابن أبي العوام حدَّثنا يزيد بن هرون حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رجل لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير تتصدقون وتعتقون وتحجون وتنفقون، فقال عثمان وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم، قال فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض.

وفي سنن أبي داود من حديث الليث عن أبي الزبير عن يحيى بن جعدة عن أبي هريرة أنه قال يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقلّ وابدأ بمن تعول، وفي المسند وصحيح ابن حبان من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال جهد من مقل، وفي سنن النسائي من حديث الأوزاعي عن عبيد بن عمير عن عبدالله بن حبشي أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة، قيل: فأيّ الصلاة أفضل؟ قال: طول القيام، قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: جهد من مقل، قيل: فأي الهجرة أفضل؟ قال: من هجر ما حرم الله عليه، قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من أهريق دمه وعقر جواده.

وهذه الأحاديث كلها تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذي لا يتبين أثر نقصانه عليه وإن كان كثيراً، لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في القلوب لا بكثرتها وصورها، بل بقوة الداعي وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره الله على نفسه، فأين

صدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضاً من فيض، فرغيف هذا درهمه في الميزان أثقل من مائة ألف هذا. والله المستعان.

فصل: واحتجوا بما رواه ابن عدي من حديث سليمان بن عبد الرحمن حدثنا خالد بن يزيد عن أبيه عن عطاء سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً» وهذا الحديث لا يصح، فإن خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك الدمشقي أجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه، قال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: واه، ونسبه يحيى إلى الكذب وقد تقدم فيه، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة فقال: قد تنازع كثير من المتأخرين في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل، فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد، ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد، وحكى في ذلك عن الإمام أحمد روايتان، وأما الصحابة والتابعون رضي الله عنهم فلم ينقل عن أحد منهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر، وقد قالت طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الأخرى فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل فإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة، قال وهذا أصح الأقوال لأن نصوص الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى وقد قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أو فقيراً فاللّهُ أولى بهما﴾ [النساء: ١٣٥] وقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء، والكاملون يقومون بالمقامين، فيقومون بالشكر والصبر على التمام كحال نبينا ﷺ وحال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع، والغنى لآخرين أنفع كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض لبعضهم أنفع، كما في الحديث الذي رواه البغوي وغيره عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «إن

من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر عبادي، إني بهم خبير بصير».

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء» وفي الحديث الآخر: «لما علم الفقراء الذكر عقب الصلاة سمع بذلك الأغنياء، فقالوا مثل ما قالوا؛ فذكر ذلك الفقراء للنبي ﷺ فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» فالفقراء يتقدمون في دخول الجنة لخفة الحساب عليهم؛ والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته في الجنة فوقه، وإن تأخر في الدخول، كما أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشة بن محصن، قد يدخل الجنة من يكون أفضل من أحدهم في الدرجات، لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب فهذا في الفقر المذكور في الكتاب والسنة وهو ضد الغنى؛ الذي يبيح أخذ الزكاة أو الذي لا يوجب الزكاة.

ثم قد صار في اصطلاح كثير من الناس أن الفقر عبارة عن الزهد والعبادة والأخلاق، ويسمون من اتصف بذلك فقيراً وإن كان ذا مال، ومن لم يتصف بذلك. قالوا: ليس بفقير وإن لم يكن له مال، وقد يسمى هذا المعنى تصوفاً، ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير الصوفي، ثم من هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل ومنهم من يجعل مسمى الصوفي أفضل، والتحقيق في هذا الباب أنه لا ينظر إلى الألفاظ المحدثة بل ينظر إلى ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والمعاني، والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوى، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل، والأغنياء والفقراء هما سواءٌ في ذلك. والله أعلم.

الباب الثالث والعشرون

في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الفقراء: لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال في القرآن إلا على أحد وجوه: الأول على وجه الذم، كقوله تعالى: ﴿كلَّا إن الإنسانَ ليطغى أنْ رآهُ استغنى﴾ [العلق: ٦] وقوله: ﴿ولو بسطَ الله الرزقَ لعباده لبغوْا في الأرض﴾ [الشورى: ٢٧] وقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أمةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارجَ عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسُرُرَاً عليها يتكئون، وزخرفاً وإنْ كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ [الزخرف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالُهم ولا أولادُهم إنما يُريدُ الله ليعذبَهم بها في الحياة الدنيا وتزهقَ أنفسُهم وهم كافرون﴾ [التوبة: ٥٥] وقال تعالى: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال: ﴿زين للناس حبُّ الشهواتِ من النساء والبنينَ والقناطيرِ المقنطرة مِن الذهبِ والفضَة﴾ [آل عمران: ١٤] الآية ونظائر ذلك كثير.

الوجه الثاني: أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان، كما قال تعالى: ﴿إنما أموالُكم وأولادُكم فتنة﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالى: ﴿أيحسبون أنَّما نُمدُّهُم به من مالٍ وبنينَ نسارعُ لهم في الخيراتِ بل لا يَشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥] وقال تعالى مخبراً عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر: ﴿فأمَّا الإنسانُ إذا ما ابتلاهُ ربُّه فأكرمَه ونعمَّه فيقولُ ربي أكرَمَن﴾ [الفجر: ١٥] الآية، وقال تعالى: ﴿ونَبْلُوُكُم بالشرّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجعون﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الوجه الثالث: إخباره سبحانه وتعالى أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه شيئاً، وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح كما قال: ﴿وما أموالُكم

ولا أولادُكم بالتي تُقرِّبُكم عندنا زُلفى إلا مَنْ آمَنَ وعملَ صالحاً فأولئكَ لهم جَزَاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلوا وهم في الغُرُفَاتِ آمِنُون﴾ [سبأ: ٣٧].

الوجه الرابع: إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عينيْكَ إلى مَا متَّعْنَا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياةِ الدنيا لِنفتنَهم فيه، ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقى﴾ [طه: ١٣١] وقال تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ [الأحقاف: ٢٠] وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» وسيأتي الحديث.

الوجه الخامس: أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ [الواقعة: ٤٥] وقوله: ﴿وإذا أردنا أنْ نُهلكَ قريةً أمرنَا مُترفيها ففسقوا فيها﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله تعالى: ﴿لا تركُضوا وارجِعُوا إلى ما أُترفْتُم فيه ومَساكِنِكُم لعلَّكُم تُسألون﴾ [الأنبياء: ١٣].

الوجه السادس: أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿وتأكلون التراثَ أكلاً لماً وتُحبون المالَ حُبّاً جَمّاً﴾ [الفجر: ٢٠]، فذمهم بحب المال وعيرهم به.

الوجه السابع: أنه سبحانه ذم متمني الدنيا والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه: ﴿فخرجَ على قومه في زينته قال الذين يُريدون الحياةَ الدنيا يا ليتَ لنا مثلَ ما أوتي قارونَ إنَّه لذو حَظٍّ عظيم وقال الذينَ أُوتوا العلمَ ويلَكُم ثوابُ اللّهِ خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً ولا يُلَقّاهَا إلا الصابرون﴾ [القصص: ٨٠] فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقى هذه الوصية وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة التي دل عليها قوله ثواب الله خير، والسيرة والطريقة التي دل عليها قوله: لمن آمن وعمل

صالحاً، وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء، وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامن: أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذي يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنىَّ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال، وقال سبحانه: ﴿قلْ بفضلِ الله وبرحمته فبذلك فليفرَحُوا هو خيرٌ مما يَجْمعون﴾ [يونس: ٥٨] ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن والذي يجمعونه هو المال وأسبابه. ومثله قوله تعالى: ﴿أهم يقسمونَ رحمةَ ربِّك ـ إلى قوله ـ ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يَجْمعون﴾ [الزخرف: ٣٢].

الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى: ﴿ألهاكُم التكاثرُ حتى زُرتُم المقابرَ كلاَّ سوفَ تعلمونَ. ثُمَّ كَلاَّ سوفَ تَعلمون﴾ [التكاثر: ١] فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وأما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو

بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن الشخير أَنَّهُ قال: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر، وقال: يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت»، ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً إذا عاين تكاثره هباءً منثوراً، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحفظ به من علوه به في الدنيا بأن حصل مع الأسفلين فيا له تكاثراً ما أقله، ورزءاً ما أجله، ومن غنى جالباً لكل فقر، وخيراً توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه، يا ليتني قدمت لحياتي وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿ربِّ ارجعوني لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ كَلَّا إنَّها كلمةٌ هو قائلُها﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠] تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً (ربّ) استغاث بربه ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى قال: ﴿ارجعوني﴾ ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له كلا، لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو

قائلها لا حقيقة تحتها وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله لسانه وأنه لو رد لعاد لما نُهي عنه وأنه من الكاذبين فحكمه أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى كما قال تعالى: ﴿ولو تَرى إذْ وُقِفُوا على النَّار قالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبُ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين. بل بَدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنَّهم لكاذبـون﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله: ﴿ما كانوا يُخفون من قبلُ﴾ قدروا مضافاً محذوفاً وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه، ولما عللوا أن هذا وارد عليهم قالوا إن القـوم في بعض موارد القيـامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين، فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه، قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير، ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً، فإن السياق والإضراب ببل والإخبار عنهم بأنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، لا يلتئم بهذا الذي ذكروه فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجّاج: بل بدا للأتباعِ ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعـث، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخاف، وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم إذ خفيت عليهم مضرته، ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا

العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره. قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل، وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك، وقد كان ظاهراً له قبل هذا، ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد، بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم، ولا يقال لمن أظهروا الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم والذي كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان، معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق، فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله، وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل، وأنّ الرشد في عدوله عنه، فقيل له إن اطلع عليه وليّه عاقبك، وهو يعلم

ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد لعاد لما نهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو نفي قولهم إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلوماً وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض في أثناء هذه المسألة فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق، فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

وقوله: ﴿كَلَّا لو تعلمونَ علمَ اليقين﴾ جوابه محذوف دل عليه ما تقدم أي لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يمارى في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد. فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء، وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿كَلَّا سوف تعلمونَ ثمَّ كَلَّا سوفَ تعلَمون﴾ قيل تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كلَّا سيعلمونَ ثمَّ كَلَّا سيعلمون﴾ وقيل ليس

تأكيداً بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، هذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس، ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه: أحدها أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة، الثاني توسط «ثم» بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً. الثالث: أنَّ هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول. الرابع أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر. قال الترمذي حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن علي رضي الله عنه قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿ألهاكم التكاثر﴾.

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا، فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثاني عن محل صرفه كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن ماذا[1] عمل فيما علم».

(١) في الطبعة السلفية ص ٢٠٢ «وفيما ذا عمل فيما علم».

وفيه أيضاً عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه» قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة - يعني من النعيم - أن يقال له: ألم نصحح جسمك ونرويك من الماء البارد».

وفيه أيضاً من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه «لما نزلت ﴿لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ قال الزبير: يا رسول الله فأي النعيم نُسأل عنه؟ وإنما هو الأسودان التمر والماء، قال: أما أنه سيكون». قال هذا حديث حسن. وعن أبي هريرة نحوه وقال إنما هو الأسودان العدو حاضر، سيوفنا على عواتقنا قال: إن ذلك سيكون. وقوله إن ذلك سيكون، إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال، أي أن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمراً وماء فإنه من النعيم، ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد «هذا من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة» فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج[1] فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فأرجعني آتيك به، فإذا أُعيد لم يقدم خيراً فيمضى به إلى النار، وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس

(١) في النهاية «يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج من الذل» البذج ولد الضأن وجمعه بذجان.

وترتع أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا؟ فيقول لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني» قال هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤولون عن النعيم، وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الأية: قال رسول الله: «أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنّب[1] وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك للكفار، ثم قرأ: ﴿وهل نُجازي إلا الكَفُور﴾ [سبأ: ١٧] قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم، والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يُسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيّعوا حق النعمة، ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم. قال وهذا معنى قول مقاتل وهو قول الحسن قال: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت. الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً، ويدل عليه أيضاً الأحاديث التي تقدمت، وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له وأي نعيم نُسأل عنه وإنما هو الأسودان فلو كان الخطاب مختصاً

(١) ذنب: بدا به الإرطاب من قبل ذنبه.

بالكفار لبين لهم ذلك وقال ما لكم ولها إنما هي للكفار، فالصحابة فهموا التعميم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح. والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما، فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: وأين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوبة، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»، فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وإن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عام لمن بلغه وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا كُتِبَ عليكُم الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره كما دخل

تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين، فقوله: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلّا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه؟ قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به، وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿ وكانَ الإنسانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١٧]، ﴿ وكانَ الإنسانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿ إنَّ الإنسانَ لربِّه لكَنُود ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿ وحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كانَ ظَلوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، (إنَّ الإنسان لكفور﴾ [الحج: ٦٦] ونظائره كثيرة فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلّا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلّابتزكية الله له وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلّا فهو مُلتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بدّ.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له في الدنيا، وليس في قوله ﴿ سوف تعلمون ﴾ ما يقتضي دخول النار فضلاً عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً، وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بدّ أن يراها الخلق كلهم، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها، وأما

ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلّا أهل النار فباطل قطعاً إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير الملهى، وانطباق معناها على أكثر الخلق، يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلّا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضاً فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولستُ بالأكثر منهم حصىً وإنما العزةُ للكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنساناً في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة، فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قلة وفقر وحرمان، والكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا

التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علماً، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً في إخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضي الله عنهم في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر رضي الله عنهما، فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبداً.

فصل: ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعاً لهم وزجراً عن التكاثر ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية؛ وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فللّه ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظةً وتحذيراً، وأشدّها ترغيباً في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقاً وبلغها رسوله عنه وحياً.

فصل: وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي، زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر، فها هنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة إلى دار القرار.

فصل: فلنرجع إلى تمام المناظرة، قالوا: فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريماً لهم وتطهيراً عن أدناسها، ورفعة عن دناءتها، وذماً لهم، وأخبرهم بهوانها عليه، وسقوط قدرها عنده، وأعلمهم أن بسطها فتنة وأنه سبب الطغيان والفساد في الأرض، وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة وأنها متاع الغرور، وذم محبيها ومؤثريها، وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له في الآخرة من نصيب، وأخبر أن بسطها فتنة، وابتلاء لا كرامة ومحبة، وأن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم في الخيرات وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه، وأنه لولا تتابع الناس في الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم، ووسعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فِضّة، وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الآخرة، ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها، وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها، وقال لنبيه: ﴿ذرْهُم يأكلُوا ويتمتعوا ويُلْهِهُمُ الأملُ فسوفَ يَعلمون﴾ [الحجر: ٣] وفي هذا تقوية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها، وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها، ولا يعطي نفسه شهواتها ولا يتمتع بها، وذم سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة في سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه.

وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه، ومثلها لعباده بالأمثلة التي تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون إليها فأحضر صورتها وحقيقتها في قلوبهم بما ضربه لها مثلاً: كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبساً هشيماً تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء.

وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوماً أو بعض يوم، ونهى سبحانه عباده

أن يغتروا بها وأخبرهم أنها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور، وطريق ومعبر إلى الآخرة، وأنها عرض عاجل لا بقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه، وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى في إرادته، فالله يريد شيئاً ومريد الدنيا يريد خلافه، فهو مخالف لربه بنفس إرادته، وكفى بهذا بعداً عنه سبحانه، وأخبر سبحانه عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم، قالوا وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب في التقال منها ما أمكن.

قالوا: وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يردْها ولم يخترها ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها وأنفقه كله في مرضاة الله وسبيله قطعاً، بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد حدثنا عباد ـ يعني ابن عباد ـ حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف فدخل عليّ رسول الله ﷺ فقال ما هذا؟ فقلت فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك فبعثت إليّ بهذا، فقال رديه، فلم أرده، وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال يا عائشة رديه والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها، وقال بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتاً، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفيهما عنه قال: « والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا».

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً ولا شاة سميطاً قط حتى لحق بربه. وفي صحيحه أيضاً عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض وفي صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه.

وفي المسند والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. وفي الترمذي من حديث أبي أمامة: ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير. وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها والذي بعث محمداً بالحق ما رأى منخلاً ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض. قال عروة: فقلت فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف ـ أي تنفخه ـ فيطير ما طار وتعجن الباقي.

وفي صحيح البخاري عن أنس قال: لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير. ولقد سمعته يقول: ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات ـ وفي مسند الحارث عن أبي أسامة عن أنس أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؛ قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل في فم أبك منذ ثلاثة أيام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع.

وقد أسرف أبو حاتم بن حبان في تقاسيمه في رد هذا الحديث وبالغ

في إنكاره وقال: المصطفى أكرم على ربه من ذلك، وهذا من وهمه وليس في هذا ما ينقص مرتبته عند ربه، بل ذلك رفعة له وزيادة في كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم، وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث في معيشة النبي ﷺ، وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟ فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب مُلك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم، ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله. وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجبيت إليه الأموال ومات ولم يترك درهماً واحداً ولا ديناراً ولا شاةً ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمَةً.

قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبي حازم عن عروة أنه سمع عائشة تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار، قلت: يا خالة؛ فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت على الأسودين التمر والماء. وقد تقدم حديث أبي هريرة في قصة أبي الهيثم بن التيهان وأنه خرج رسول الله ﷺ من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: ما أخرجكما؟ قالا: الجوع، قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما.

وذكر أحمد من حديث مسروق قال: دخلت على عائشة فدعت لي بطعام وقالت ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت؟ قال: قلت لم؟ قالت: اذكر الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما أشبع في يوم مرتين من خبز البر حتى قبض، وفيه عنها: ما أشبع رسول لله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض، وا- ديثان صحيحان وفيه أيضاً عنها: ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل. وفي الصحيحين عن أبي هريرة؛ ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أتباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا.

وفي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير.

وفيه أيضاً: عن أنس عنه ﷺ: «لقد أُخفتُ في الله وما يخُاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله فلـو كبدٍ إلا شيء يواريه إبط بلال». والحديثان صحيحان، وفيه أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا حجراً حجراً فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين. وفيه أيضاً عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، حديث صحيح. وفيه عن عليٍّ رضي الله عنه قال: خرجت في يوم شاتٍ من بيت رسول الله ﷺ وقد أخذت إهاباً معطوناً فجوبت وسطه وأدخلته في عنقي فشددت به وسطي فحزمته بخوص من النخل وإني لشديد الجوع، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئاً فمررت بيهودي في مال له وهو يسقي ببكرة له فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط، فقال: ما لك يا أعرابي وهل لك في كل دلو بثمرة؟ قلت نعم، فافتح الباب حتى أدخل، ففتح فدخلت، فأعطاني دلوه، فكلما نزعت دلواً أعطاني ثمرة؛ حتى امتلأت كفي أرسلت دلوه وقلت حسبي فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت الماءَ فوجدت رسول الله ﷺ فيه. وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الحبلة وهذا السمر، والحبلة ثمر العضاة ذات الشوك، وهو حديث صحيح.

وكان ﷺ يصلي من الليل أحياناً وعليه كساء صوف بعضـه عليه وبعضه على عائشة. قال الحسن: أثمان ستة دراهم أو سبعة. وقال أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة حدثنا عطاء عن أبيه عن علي قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف، والخميل الكساء الذي خمل قال وحدثنا بهز بن أسد حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد قال: قال أبو بردة دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما

يصنع باليمن وكساء من هذه التي تدعونها الملبدة فقالت قبض رسول الله ﷺ في هذين الثوبين.

قالوا ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا، ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم، ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له، ولم يكن الله ليختار له إلا الأفضل، إذ كان أفضل خلقه وأكملهم.

قالوا وقد أخبر النبي ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن مهدي حدثنا همام عن قتادة عن خليد العصري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: «اللهمَّ أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي».

وتأمل جمعه في هذا الحديث بين رزق القلب والبدن، ورزق الدنيا والآخرة وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد، فيكفي من الذكر إخفاؤه، فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين، وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغني.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا علي بن صالح، عن أبي